تاريخ نشأة اللغة العربية وتطورها

Muhammad Ediyani
Sekolah Tinggi Ilmu Tarbiyah (STIT) Syamsuddhuha
ediyani03@gmail.com

مستخلص

اللغة العربية هي لغة القبائل التى سكنت شبه الجزيرة من اليمن إلى الشام إلى العرق وتخوم فلسطين وسناء للوصول إلى أغراضهم، وهي إحدى اللغات السامية، وإن موضوع نشأة اللغة من المواضيع التي تناولها الباحثون قديما وحديثا، وأسهبوا فيها كثيرا وأسفر عملهم ذاك عن بعضه آراء، من أهمها: التواضع والاصطلاح، واللغة وحي من الله، وقد تم تعليم الإنسان الأول أسماء كل شيء (توقيف)، وولدت اللغة بصورة تراكمية خاضعة لعامل الزّمكان وحاجة الإنسان. وتتطور اللغة العربية بعد مجيئة الإسلام بنزول القرآن الكريم تطورا عاليا، لأن كانت اللغة العربية قبل نزول القرآن تصنف إلى شعر ونثر، فلما نزل القرآن صارت نماذج التعبير اللغوي في العربية الثلاثة : قرآنا وشعرا ونثرا. ولاشك أن اللغة العربية بلغت أوج مجدها وارتفعت في عهد الإسلام لأنها أصبحت جزء من الدين، وفي عهد النبوة وصدر الإسلام أخذ الناس يهتمون بالعربية كثيرا ويحرصون عليها لأنها لغة القرآن والدين والرسول الصادق الأمين. ومن العوامل الموثرة الأخرى في تطور اللغة العربية هي العوامل السياسية والإجتماعية والحضارية.

الكلمات الافتتاحية: تاريخ النشأة والتطور، اللغة العربية.

Abstract

Arabic is the language of the tribes that inhabited the peninsula from Yemen to the Levant to the race and the borders of Palestine and Sana to reach their purposes, which is one of the Semitic languages, and the subject of the emergence of language of the subjects addressed by the researchers of old and recent, and expanded in them a lot and their work that some opinions, The most important of these are: humility and terminology, and language inspired by God. The first person was taught the names of everything (arrest), and the language was born cumulatively subject to the factor of space-time and human need. After the advent of Islam, the Arabic language evolved with the decline of the Holy Quran, because the Arabic language before the descent of the Qur'an was classified into poetry and prose. When the Quran came down, the linguistic expressions in the three Arabic languages became Quran, poetry and prose. There is no doubt that the Arabic language reached the height of its glory and rose in the era of Islam because it became part of religion, and in the era of prophecy and the origin of Islam, people take care of Arabic a lot and are keen on it because it is the

language of the Koran and religion and the true and faithful messenger. Other factors affecting the development of Arabic are political, social and cultural factors.

Key Words: History of origin and development, Arabic language.

مقدمة

ومن المعلوم أن اللغة العربية هي إحدى اللغات السامية التي يتحدث بها ٢٠٠ مليون عربي تقريبا، وهي لغة مقدّسة عند المسلمين لأنها لغة القرآن الكريم، وبالإضافة إلى ذلك هي إحدي اللغات الرسمية الخمس في هيئة الأمم المتحدة.

وإن اللغة العربية تدرس في جميع المدارس والمعاهد الدينية في العالم الإسلامي من المرحلة الإبتدائية إلى المرحلة الجامعية. وأنها يستعملها الإنسان وسيلة في تعليم علوم الدين ولها صفات خاصة لمخارج الحروف عند نطقها. وكذلك أن اللغة العربية تحتاج إلى تدريب اللسان والتمرين في استعمالها يوميا. لكي يحصل المتعلم على نطق الحروف العربية نطقا صحيحا وفصيحا.

ومن أجل ذلك، يلزم على المتعلم أن يتعلم ويعرف عميقا عما يتعلق باللغة العربية من حيث تعريفها ونشأتها وتطورها. إعتمادا على ذلك فيبحث الكاتب في هذا البحث عن تاريخ نشأة اللغة العربية وتطورها لمساعدة المتعلم على معرفتها.

تاريخ نشأة اللغة العربية

قبل أن نبحث عن نشأة اللغة العربية فمن المستحسن لنا أن نعرف تعريف اللغة العربية، ومن حيث الواقع المعروف أن اللغة العربية تتركب من الاسمين "اللغة والعربية"، فاللغة مصدر من لغا-يلغى- لغة هي أصوات يعبربها كل قوم عن أغراضهم.[١] أما العربية أصلها من كلمة العرب، والعرب معناها أمة من الناس سامية الأصل كان منشؤها شبه جزيرة العرب.[٢]

والمراد باللغة العربية هي لغة القبائل التى سكنت شبه الجزيرة من اليمن إلى الشام إلى العرق وتخوم فلسطين وسناء للوصول إلى أغراضهم، وهي إحدى اللغات السامية.[٣]

إن موضوع نشأة اللغة من المواضيع التي تناولها الباحثون قديما وحديثا، وأسهبوا فيها كثيرا وأسفر عملهم ذاك عن بعضه آراء، من أهمها:[٤]

١ - التواضع والاصطلاح (الاعتياط) في تسمية الأشياء دون أي علاقة منطقية بين الشّيء واسمه. ويكون من خلال اجتماع حكماء القوم واتّفاقهم على اسم معين يتم إطلاقه على الشيء.

[١] إبرهيم أنيس وأصدقاء، *المعجم الوسيط*، الطبعة الرابعة، (مصر: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤م)، ص. ٨٣١

[٢] إبرهيم أنيس وأصدقاء، *المعجم الوسيط*،...ص.٥٩١

[٣] إسماعيل بن حماد الجوهري، *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المجلد السابع*، الطبعة الرابعة، (لبانون: بيورت، ١٩٩٠م) ص. ١٠

[٤] سامر إسلامبولي، *علمية اللسان العربي وعالميته*، (مصر: القاهرة، ٢٠٠٧م)، ص. ٣٢-٤١

٢ - اللغة وحي من الله، وقد تم تعليم الإنسان الأول أسماء كل شيء (توقيف)
٣ - كانت نشأة اللغة نتيجة تفاعل الإنسان مع الأحداث وضرورة تواصله مع بني جنسه، وحاجاته لتخزين المعلومات، فولدت اللغة بصورة تراكمية خاضعة لعامل الزّمكان وحاجة الإنسان.

لنناقش الآراء الثّلاثة:

الرّأي الأول:

إن عملية الاجتماع لاختيار اسم لشيء معين تدل على وجود كلمات معلومة بالنّسبة للقوم، أي عندهم لغة يستخدمونها، وبحثنا هو عن نشأة اللُّغة، وليس عن استخدامها في تسمية الأشياء، غير أن أساس اللُّغة هو أفعال وليس أسماء. فهو رأي ضعيف جدا.

الرّأي الثّاني:

انطلق القائلون به من مسألتين:

المسألة الأولى: وُجُود نص قرآني يقول (وعلم آدم الأسماء كلها) فعدُّوا هذا النّص دليلاً على أنَّ اللُّغة وحي من الله إلى الإنسان الأول، وهذا الأمر في حقيقته يقتضي أن كلمات اللُّغة كلها قد علمها واستخدمها الإنسان الأول، أي أنَّ الإنسان الأول كان سابق في لغته عن الواقع الذي يعيشه، فهو يعرف أسماء كل ما كان وسيكون دون وُجُود لهذه الأشياء في الواقع، ودون وُجُود لدلالتها في ذهنه ضرورة، وإلا قام بتنفيذها وإخراجها إلى أرض الواقع واستفاد منها، ويقتضي أيضاً قيام الإنسان الأول الذي أوحيت إليه اللُّغة بتلقينها ألفاظاً دون معانٍ لأولاده، وهكذا تَسْتَمِرَّ عملية التّلقين من جيل إلى آخر. وهذا التّصُور لنشأة اللُّغة هو وهم مخالف للواقع تماماً حيث أنَّ اللُّغة هي نتيجة تفاعل الإنسان كجماعة وكمجتمع، وتراكم ذلك وتناميه ضمن زمن ليس بالقليل، فاللُّغة لم توجد في زمن واحد، ولم تكن نتيجة تفاعل إنسان واحد، وكذلك لم تكن نتيجة تفاعل مجتمع واحد، بل تفاعل مجتمعات بصُورة تراكمية متنامية حسب احتياج كل مجتمع وسعة تفكيره. ناهيك عن أن دلالة النّص القرآني ظنية الدّلالة لاحتماله أكثر من مفهوم وذلك حسب منظومة الباحث التي يستخدمها في البحث.

المسألة الثانية: لقد نظر هؤلاء إلى عظمة اللغة العربية وإحكامها فقالوا باستحالة أن تكون اللُّغة من صنع الإنسان، وذلك لانبهارهم بها وعدم مشاركتهم في عملية ولادتها وبنائها، فلقد وصلت إليهم بناء متكاملاً محكماً، ونزل القرآن عربي اللُّغة، والقرآن نص خاتمي ومعجز، فوصلوا إلى أنه لابُدَّ أن تكون اللُّغة التي تحتوي القرآن هي من المصدر ذاته. أي من الله تبارك وتعالى.

١ -إن اللُّغة العربية سابقة في وُجُودها عن النّص القرآني، وبالتّالي لا علاقة للنّص القرآني باللُّغة العربية ابتداءً.

٢ -اللُّغة لم توجد ابتداء على صُورتها الحالية دفعة واحدة، وإنَّما وجدت بصُورة تراكمية خلال فترات طويلة من الزّمن ساهمت المجتمعات الأولى في عملية ولادتها وبنائها، فهي ليست من صنع إنسان بعينه، بل يستحيل عليه أن ينشيء هذا الصّرح العظيم، فهي نتيجة تلاقح وتفاعل عقول المجتمعات مع الواقع بصُورة تراكمية. فكانت اللُّغة ظاهرة اجتماعية، ونتيجة تفاعل الإنسان مع الواقع. ومثل ذلك مثل سائر العُلُوم

كلها، فقد بدأ الإنسان من نقطة الصّفر (أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً)، وبدأ الإنسان كمجتمع في رحلة التّعلم منذ أن تم النّفخ فيه من روح الله عز وجل، فتفعل عنده السّمع والبصر والفؤاد وسار في الأرض لينظر كيف بدأ الخلق. فلو جاء أحد الآن وهو لا يدري عن نشأة علم الرّياضيات شيئاً ونظر إلى عظمته ودقته وسعته الحالية لما صدق أبداً أن ذلك من صنع واكتشاف الإنسان، لأن من طبيعة الإنسان عندما ينظر إلى شيء يريد أن يحكم عليه ينطلق من صفة العجلة، ويهمل عامل الزّمان وصفة التّراكم المعرفي للمجتمعات، ويحسب أن ذلك الصّرح الرّياضي العظيم هو من بناء إنسان واحد وفي لحظة واحدة فيحكم مُباشرة باستحالة أن يصدر ذلك من إنسان، ولابُدَّ أن يكون هذا العلم الرّياضي من جهة عظيمة غير الإنسان. وما ينطبق على العُلُوم ينطبق على علم اللُّغة العربية تماماً.

فالإنسان كائن عظيم بما وهبه الله عز وجل من نعمة العقل والتّفكير والحُرّيّة، وجعله خليفة في الأرض (ولقد كرمنا بني لآدم) (إني جاعل في الأرض خليفة) وقديماً قيل: إذا عُرِفَ السّبب بطل العجب. فاللُّغة العربية هي نتيجة تفاعل الإنسان عقلاً وتفكيراً مع الواقع وتواصله مع بني جنسه وتراكم هذه المعلومات وتواصلها مع المجتمعات اللاحقة، فكل مجتمع يضيف تفاعله في علم اللُّغة لما سبق إلى أن تم بناء نظام وأساس اللُّغة واكتمال الأبجدية الصّوتية التي هي بمثابة اللّبنات والعناصر الأساسية التي تم استخدامها في بناء اللُّغة.

والقرآن نزل مستخدماً اللُّغة العربية ليوصل إلى النّاس مضموناً معيناً من الدّلالات، والكلمات التي استخدمها الله في صياغة النّص القرآني هي ذات الكلمات التي يستخدمها الإنسان في كلامه مع الآخرين، والمعجزة في النّص القرآني كانت في طريقة استخدام الكلمة وتركيبها مع أخواتها بصُورة مطابقة لمحل الخطاب من الواقع تماماً وتغطي الحدث من بدايته إلى منتهاه حيث لا يقبل النّص أي زيادة في المبنى مع مرور الزّمن وتقدم العُلُوم عند الإنسان، ومن هذا الوجه نقول: النّص القرآني صالح لكل زمان ومكان. وتجلت تلك الحقيقة في ثبات النّص كمبنى وتحركه كمعنى ضمن معطيات دلالات المبنى ومعلومات الواقع وكل ذلك على محور الثّابت والمتغير.

لذا فإن القول بأن نشأة اللُّغة العربية وحي من الله عز وجل هو رأي ضعيف جدَّاً، وبعيد عن الصّواب والبحث العلمي، وسنثبت ذلك أثناء تكلمنا عن الرّأي الأخير.

الرّأي الثّالث:

إن اللُّغة العربية هي نتيجة تفاعل الإنسان كمجتمع مع الواقع، وهذا الرّأي هو الصّواب من بين الآراء المذكورة. لنر ذلك من خلال الشّرح.

أول أمر ينبغي العلم به هو العلم بالإنسان ككائن حي له غرائز وحاجات نفسية وجسمية، ومن غرائزه النّفسية غريزة التّعلم التي تدفعه إلى البحث والتّقصي عن حقيقة حدوث الأمور، وحتّى تكون عنده القدرة على التّعلم ينبغي أن يملك أدوات التّعلم ودافع التّعلم، وهذه الأمور هي من الفطرة التي فطر الله النّاس عليها، فيُوجد انسجام وتكامل بين فطرة الإنسان والواقع الذي هو من خلق الله، فقد جعل الله الإنسان يتناغم وينسجم عقله وتفكيره وجهاز النّطق عنده مع الواقع تماماً. فالإنسان الأول كجنس هو إنسان فطري ملتصق بالواقع أكثر من إنسان اليوم، ويتفاعل مع بيئته بصُورة انسجامية وتناغمية ويتنبه إلى تغيرات الطّبيعة وتقلباتها، فهو جزء لا يتجزأ من الطّبيعة، فكان واقعاً تحت تأثير وهيمنة الطّبيعة عليه بعكس إنسان المدنية والمعاصرة فهو يعيش حياة

مادِّيَّة بين أربع جدران تسد حواسه من أن تتفاعل مع الواقع بل ويحارب الطّبيعة ويقوم بتلويث البيئة ويعيش مخالفاً لفطرته معادياً لبيئتها.

أما الإنسان الأول كجنس فهو ربيب الطّبيعة وابنها البار المتكيف مع نظامها والملتصق بها كالتصاق الولد بأمه، يأخذ كل شيء منها. فلما بدأ الوعي عند الإنسان صار يحاكي أصوات الطّبيعة والكائنات الأخرى ويفهم لغتها التي هي الظّواهر الطّبيعية وذلك من خلال تفاعله الفيزيولوجي الإيجابي والسّلبي في استخدام جهاز النّطق عنده، وتفاعله النّفسي شُعُوراً وعقلاً فبدأ بإصدار الأصوات كفعل ورد فعل، وذلك بالتّعلم من الطّبيعة ذاتها، فأخذ صُور صوتية للظّواهر الطّبيعية، فكانت هي بداية ولادة الأحرف عند الإنسان الأول، وتراكم ذلك التّفاعل في المجتمع وأخذ بُعْداً اجتماعياً لتواصل ونقل الخبرات من جيل إلى آخر، فكان الإنسان الأول كجنس يتواصل من خلال التّصويت الذي هو في حقيقته صُور صوتية للظّواهر الطّبيعية، ونتيجة تراكم هذه الصّور الصّوتية أوجد أساساً للمجتمعات اللاحقة لتكوين اللُّغة، وذلك من خلال استخدام هذه اللّبنات والعناصر الأولى (الصّور الصّوتية) بضم صوت إلى آخر نتيجة علاقة بينها في الواقع بصُورة متتابعة كظاهرتين، فنشأت الصّورة الصّوتية المؤلفة من مقطعين من الصّوت كبداية لنشأة اللُّغة وأساس لبنائها، وكان ذلك في مرحلة التّعقل والتّفاعل الإنساني وعندما اشتدت الحاجة وكثرت العلاقات الجماعية وتعقدت تمت عملية ولادة المجتمع، وبدأ الإنسان في التّفكير مستخدما اللُّغة كحقل ووعاء ومجال له لأنَّ الإنسان لا يفكر دون لغة.

فاعتمد على الأساس الفطري الذي وصل إليه نتيجة تعقله وتفاعله مع الواقع الذي هو المقاطع الصّوتية وما ركبه منها من ثنائيات بصُورة فطرية وعقلية، فقام بتوسيع هذه الكلمات الثّنائية فطرة وتفاعلا وأضاف لها صوتا آخر لتصير ثلاثية الأصوات، وبذلك بدأ التّفكير عند الإنسان بصُورة متنامية وصاعدة مع توسع اللُّغة طرداً بحيث كلما زاد التّفكير توسعت اللُّغة بناءً وكثرت مفرداتها لتحتوي مادَّة التّفكير إلى أن وصلت إلى مستوى عظيم من البناء واكتملت من حيث النّظام الذي يحكم اللُّغة. فولادة اللُّغة من حيث الأساس إنَّما هي أمر فطري وظهر ذلك من خلال تفاعل الإنسان وتعقله ووصل إلى المقاطع الصّوتية (الأبجدية) والكلمات الثّنائية، وعندما بدأ التّفكير عند الإنسان كمجتمع ظهر ضرورة توسع اللُّغة وبنائها فظهرت الكلمات الثّلاثية تباعاً في كل مجتمع حسب مستواه المعرفي لتكون الوعاء والحقل لعملية التّفكير.

فولادة اللُّغة أساساً هي في مرحلة التّعقل والتّفاعل الفطري في المرحلة الأسروية الجماعية، وذلك كصُور صوتية ثنائية للظّواهر الطّبيعية أي لحركات الطّبيعة لأنَّ الواقع قائم على قانون الحركة، واللُّغة كونها انعكاس فطري له فأساس كلماتها هي أفعال، أما توسع وبناء اللُّغة فكان متزامنا مع بدء مرحلة التّفكير والفاعلية الاجتماعية. كصُور وظيفية أو حالية للأشياء أضيفت للصّور الصّوتية ليكونا مع بعضهما بعضاً نظام اللُّغة للأجيال اللاحقة. ودراسة هذه المراحل التي مرت بها اللُّغة العربية أمر مشاهد في الواقع الحالي من خلال دراسة مراحل اكتساب اللُّغة عند الأطفال، والقيام بقياس الغائب على الشّاهد.

انطلاقا من البيان السابق يتبين أن الإنسان عندما تم النّفخ فيه من الروح قام بعملية التّفاعل فطرة وربط الأحداث بصُورة واعية، وترتب على ذلك فعل الفقه والإدراك المُباشر للأشياء، وهذه هي المرحلة التّعقلية

السّابقة عن وجود اللغة، وتكون لأفعال التنفس من حيث الشعور بالحزن والسّرور، والضحك والبكاء، والحب والكره، فهذه الأمور لا تحتاج إلى لغة ومفردات حتَّى يعقلها الإنسان في نفسه، فهو يحب ويكره دون لغة. وكذلك ربط الأحداث بمسبباتها المُباشرة الواضحة أيضاً لا تحتاج إلى مفردات ولغة حتَّى يدركها الإنسان، فالإنسان يقوم بتعقل الأحداث بصُورة مُباشرة. نحو إدراكه أن فعل الطّرق يحتاج إلى طارق، أو لابد من وُجُود طارق يقوم بالفعل، وذلك مُرتبط بصفة التّمييز والتّحليل والتّركيب والرّبط، التي هي من صفات التّعقل خلقاً نتيجة النّفخة من الرّوح فيه، وهذا الإدراك العقلي لايحتاج إلى تفكير (دراسة وتجربة وتحصيل معلومات) فهو مجرد فقه للأمور على ظاهرها.

تهذيب اللغة العربية الأول

أردنا بما تقدم الكلام في أولية هذه اللغة، وكيف نشأت وتفرعت، والقول في وجوه المشابهة بينها وبين غيرها، لنضم أطرافا من التاريخ تحصر جهة معينة من جهاته، يستدل بها الباحث على وضع المكانيّ لهذه اللغة في التاريخ العام، إذ لا سبيل إلى تعيين موضع من المواضع الدائرة تراكمت عليها طبقات الزمان القديم، إلا بتتبع الآثار التي تومئ إليه ولو إيماء معنويا.

والعرب – أهل هذه اللغة – قوم ملكوا الأرض ولم تملكهم، فلم يؤثر عنهم شيئ في جاهليتهم الأولى من أنواع الدلالة الثابتة: كالكتابة و الآثار ونحوها، ولا دخلوا في تاريخ أمة من أمم الحضارة فيكون لهم نوع من تلك الدلالة، وعلى ذلك يتعين أن تكون لغتهم أيضا قد ملكت التاريخ ولم يملكها، وهي لا بد أن تكون قد تقلبت معهم على وجوه من الإصلاح وجرت على مناح من التهذيب، وتاريخ ذلك بالطبع غير محقق بالنص، ولا سبيل إليه إلا تلك الطريقة التي سلكناها من قبل، وإن كانت هذه الجهة منها قد حفظت بعض الآثار التي يترسمها الباحث ويراها كأنما تُركت بالأمس، وذلك لقرب عهد الرواة في صدر الإسلام بقبائل العرب الذين خلصت من لهجاتهم هذه اللغة المضرية.[٥]

و قبل أن نأخذ إلى القصد من هذا التاريخ، نأتي على شيئ من أقوال علماء العرب في أمر اللغة و تهذيبها، فهم مجموعون على أن إسماعيل عليه السلام أصل يدل على أن لغة أهل الحجاز هي الأصل في جميع لهجات العرب: "وإنما صارت لغتهم الأصل، لأن العربية أصلها إسماعيل عليه السلام، و كان مسكنه مكة".[٦] وعندهم أن العربية قحطانية وحميرية وعربية محضة. وهذه هي التي نزل بها القرآن، وقد انفتق بها لسان إسماعيل، قالوا: وعلى هذا يكون توقف إسماعيل على العربية المحضة يحتمل أمرين: إما أن يكون اصطلاحا بينه وبين جرهم النازلين عليه بمكة، وإما أن يكون توقيفا من الله تعالى.

وقال الجاحظ – يشير إلى فلسفة هذا المعنى وإن لم يقصده، في سياق كلامه "أما الخواص الخلص فإنهم قالوا: العرب كلهم شيئ واحد، لأن الدار والجزيرة واحدة، والأخلاق والشيم واحدة، وبينهم من التصاهر والتشابك والاتفاق في الأخلاق وفي الأعراق ومن جهة الخؤولة المرددة والعمومة المشتبكة، ثم المناسبة التي ينبت

[٥] مصطفى صادق الرافعي، *تاريخ آداب العرب*، الجزء الأول، (لبانون: دار الكتاب العلمية، ٢٠٠٤م)، ص. ٧٠

[٦] لهذ يعتبر النحاة مذهب الحجازيين مقدما، وصاحب المخصص ينقل دائما عن العلماء و لكنه لا يعزو أكثر ما ينقله، واستمر بك أقوال في الكلام على لهجات العرب.(مصطفى صادق الرافعي، *تاريخ آداب العرب*، الجزء الأول، (لبانون: دار الكتاب العلمية، ٢٠٠٤م)، ص. ٧٠)

على غريزة التربية وطباع الهواء والماء، فهم في ذلك شيئ واحد في طبيعة اللغة" والهمة والشمائل. فإذا بعث الله عز وجل نبيا إلى العرب فقد بعثه إلى جميع العرب، وكلهم قومه، لأنهم جميعا يد على العجم، وعلى كل من حاربهم من الأمم، ولأن تناكحهم لا يعدوهم، وتصاهرهم مقصور عليهم. قالوا: والمشاكلة من جهة الأتفاق في الطبيعة والعادة ربما كانت أبلغ وأوغل من المشاكلة من جهة الرحم. نعم حتى تراه أغب عليه من أخيه، لأمه وأبيه، وربما كان أشبه به خَلقا خُلقا أدبا ومذهبا، فيجوز أن يكون الله تبارك وتعالى حين حول إسماعيل عربيا، أن يكون كما حول طبع لسانه إلى لسانهم و باعده من لسان العجم – أن يكون أيضا حول سائر غرائزه، وسلخ سائر طبائعه فنقلها كيف أحب، وركّبها كيف شاء، ثم فضّله بعد ذلك بما أعطاه من الأخلاق المحمودة، واللسان البيّن بما لم يكن عندهم، وكما خصه من البيان بما لم يخصهم به، فكذلك يخصه من تلك الأخلاق ومن تلك الدلائل بما يفوقهم ويروقهم، فصار بإطلاق اللسان على غير التلقين والترتيب، وبما نقل من طبائعه إليهم ونقل إليه من طبائعهم، وبالزيادة التي أكرمه الله بها – أشرف شرفا و أكرم كرما.[٧]

ولو صح هذا وأمثاله لكان دليلا على أن لغة القرآن متوارثة في قريش من لدن إسماعيل عليه السلام، وتكون قد بقيت زهاء خمسة وعشرين قرنا وهي جامدة على واحدة، وهذا الرأي مدفوع في العقول، وإنما سوّغه عندهم ما يريدونه من إعطاء هذه اللغة صفة إلهية لمنزلة القرآن منها، وما كان إلهيا فهو كذلك إلى الأبد، غير أن التاريخ لا دين له في نسقة الزماني، وإنما التحوّل والتنوّع من سنن الله، ولن تجد لسنّة الله تبديلا.

والذي عندنا، أن المراد بانطلاق لسان إسماعيل بالعربية، وضع أصلها بما أضاف من لغة جرهم إلى لغة قومه، وبذك انطلق لسانه من الكلام في مذهب أوسع منحى وأوضع دلالة، وهذا معنى ما ورد في الحديث من أنه أول من من فتق لسانه (بالعربية مبينة) وذلك أمر خاص بالكمال الفطري لا يحتاج إلى تمرين ولا تلقين ولا تدريج، هذا إذا صح الحديث، وإلا فإن إسماعيل علم من أعلام التاريخ الصحيح، وهو الرأس الذي أودع المعقول من تاريخ العدنانية أهل هذه اللغة، لا يتجاوزونه إلا إلى الحدس والتخمين، فلا جرم كان في الإعتبار أصل اللغة، وكانت كأنها منسوبة إليه نسبه تأريخية، لأن ما وراءه كأنه منقطع عن التاريخ، إذ هو تيهٌ من الظن لا يعرف في أي موضع منه توجد الحلقة المفصومة من سلسلة التاريخ العربية.[٨]

وعلى هذا يصح لنا أن نقول: إن أول تهذيب حقيقي في العربية، يرجع إلى عهد إسماعيل، أما تنقيح اللغة قبل ذلك فإنما هو درجات من النشوء الزمني لا يمكن بوجه من الوجوه أن يحدد أو ينسب إلى فرد معين، كنسبتهم بعضه ليعرب بن قحطان مثلا، إلا إذا صح تسلسل التاريخي حتى ينتهي إليه، وذلك غير صحيح.

[٧] مصطفى صادق الرافعي، *تاريخ آداب العرب*،... ص. ٧١

[٨] مصطفى صادق الرافعي، *تاريخ آداب العرب*،... ص. ٧٢

والاستدلال على نسبة المنطق العربي إلى يعرب إنما هو استدلال لغوي فقط، تنبّه إليه المجانسة اللفظية، وإلا فإن من المؤرخين من يقول إن يعرب هذا هو المعروف في التوراة باسم (يارح بن يقطان) وإذا وجدنا دلالة الإعراب – أي الإبانة – في يعرب، فلا نجدها في يارح، لا بالنص ولا بالتأوّل.[٩]

انتشار القبائل العربية والتهذيب الثاني

خرج أولاد إسماعيل عليه السلام ومنهم انشعبت القبائل بعد أن كانت لغتهم قد اشتدت وقطعت مسافة بعيدة من الفرق بينها وبين أصلها الذي اشتقّت منه، فابتدأت تأخذ صورة متميزة من الاستقلال.

ومن شأن الكمال في الاستقلال اللغوي استعمال القوي الكامنة في اللغة نفسها وإعطاؤها الحياة والنمو من باطنها، لا تهيئة هذا الكمال بما يتناول من قوي غيرها. فإن ذلك تبعية لا استقلال، وقد كان هذا الاستعمال الذي أشرنا إليه أصل التهذيب الثاني الذي أحدثته القبائل بعد انشعابها، فإن أعظم الأسباب في تكوين العربية على هذا النحو من اللين والمطاوعة على التغير الذي تعاورها في كل عصورها قبل الإسلام، إنما هو عدم كتابتها، لأن ما كتب لا يتغير كما أومأنا إليه في محله، وهي قد صادفت من العرب قوما كما علمت في وصفهم من التركيب الخلقي الصحيح، والفطرة البدوية السليمة، والطبيعة العربية السامية، وإذا كنا نرى اختلاف صورة الحيوان على قدر اختلاف طبائع الأمكان، فأحر بذلك أن يكون في الإنسان وفي اللغة المقوّمة له.[١٠]

لا جرم كانت جزيرة العرب وكانت قبائل العرب وكانت لغة العرب سواء في سمو الطبيعة وتميز الشأن والنزعة إلى الكمال الفطري في كل ما هو من معاني الفطرة، وإنما يمتنع الكمال عن اللغات من قبل أمور تعرض من الحوادث وأمور في أصل تركيب الغريزة، فإذا كفى الله أهلها تلك الآفات، وحصّنهم من تلك الموانع، ووفر عليهم الذكاء، وجلب إليهم جياد الخواطر، وصرف أوهامهم إلى التعرف، وحبّب إليهم التبيين – وقعت المعرفة وتمت نعمة الكمال، وذلك شأن العرب العدنانية في كل أدوارهم إلى الإسلام.

ولهؤلاء العرب أسباب خاصة فيهم بالجارحة اللسانية، وهي التي اتخذوا منها أدوات لتهذيب اللغة وصقلها، وسنفصل أمرها بعد.

فلما تفرقت القبائل أخذت اللهجات تتنوع، والعرب إنما تهجم بهم طبائعهم على حقائق الكلام، وبذلك لا بد أن تكون قد تعددت طرق الوضع في اللغة بطول المدة واتساع الاستعمال وتقليب الكلام على وجوهه المستحدثة، ومن ثم نشأت اللغات الكثيرة التي تشير إلى تاريخ هذا التنوّع لأنها مادته الحقيقة، وسنكسر عليها بابا مفردا.

وكانت العرب يأخذ بعضها عن بعض بالمخالطة والمجاورة، فربما انتقل لسان العربي عن لغته إلى لغة قبيلة أخرى، وربما تداخلت اللغات فنشأت من اللغتين لغة ثالثة، على أنهم في ذلك لا يخرج كل منهم عن قياس نفسه ووزن طبعه، حتى كأن ألسنتهم تختلف مثل الاختلاف ما بين أجسامهم وأذواقهم، فكل منهم يفصّل من الكلام ويتصرف في وجوه القول على حسب هذا القياس الذي خُلق فيه و ركب في طبعه وكان مظهر قريحته، ومن هذه

[٩] مصطفى صادق الرافعي، *تاريخ آداب العرب*،... ص. ٧٢

[١٠] مصطفى صادق الرافعي، *تاريخ آداب العرب*،... ص. ٧٣

الجهة نشأ بينهم التنافس في أحكام اللغة والمفاخرة بالبيان وانحراف اللسان عن الشذوذ الذي يعتبرونه خلقيا في ألسنة الشاذة، وساعدتهم على ذلك مواقعهم وأيامهم وأسواقهم التي يقصدونها للتسوُّق والبياعات والمنافرة والحكومة و غيرها مما هو من طبيعة المخالطة. هذا هو الدور الثاني من أدوار تهذيب العربية.[١١]

الدوّر الثالث في تهذيب اللغة

أما هذا الدور فهو عمل قريش وحدها، وهي القبيلة الأخرة في تاريخ الفصاحة، بعد أن كان الثاني عمل القبائل جميعا، وكان الأول عمل القبيلة الأولى، فتكون اللغة قد أحكمت على أدوار التاريخ الإجتماعي كل الأحكام، وذلك أن قريشا كانوا ينزلون من مكّة بواد غير ذي زرع، لا يستقل أهله بتكاليف الحياة، ولا يرزقون إذا لم تهو إليهم أفئدة من الناس، وكانت الكعبة شرفها الله وحمة العرب وبيت حجهم قاطبة في الجاهلية، فكان لكل قبيلة منهم صنم يحجون إليه، حتى قيل إنهم كانوا يقربون القرابين في الكعبة من الإبل والغنم لثلاثمائة وستين صنما، وكانت تلك القبائل بطبئعها متباينة اللهجات، مختلف الأقيسة المنطقية المودعة في غرائزها، فكان قريش يسمعون لغتهم ويأخذون ما استحسنوه منها فيديرون به ألسنتهم ويجرون على قياسه، ولو كانوا بادين كسائر القبائل ما فعلوه، ولكن نوع الحضارة الذي اكتسبوه من تاريخهم الان من طباعهم وكسر من صلابتهم، فاتفقت في ذلك حياتهم اللغوية وحياتهم الاجتماعية القائمة بالتجارة وتبادل العروض مع أصناف الناس. فلما اجتمع لهم هذا الأمر ارتفعت لغتهم عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبحها، وبذلك مرنوا على الانتقاد، حتى رقّت أذواقهم، وسمت طبائعهم، وقويت سلائقهم، وحتى صاروا في آخر أمرهم أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا، وأبينها إبانة عما في النفس، وكانت لهم رحلتان في التجارة كل عام: رحلة الشتاء إلى اليمن، رحلة الصيف إلى بصرى وإلى الحبشة، فسمعوا مناطق الناس وتدبروا وجوه العذوبة في أعذبها، وتناولوا كثيرا من الألفاظ تلك الأمم، فداخلت كلامهم وأعربوها من الرومية والفارسية والعبرانية والحبشية والحميرية، وعلى ذلك صاروا بطبيعة أراضهم في وسط العرب كأنهم مجمع لغوي يحوط اللغة ويقوم عليها ويشد أزرها ويرفع من شأنها ويزيد في ثروتها، وبالجملة يحقق فيها كل معاني الحياة اللغوية.[١٢]

ولا يسع المتأمل في الأدوار التي تعاقبت على قريش في تهذيبها اللغة، إلا أن يستسلم للدهشة، ويحار من أمر هذا التعاقب، فإنه كالسليم المدرّجة: تنتهي الدرجة منها إلى درجة، على نمط متساوق من الرقي إن لم يكن عجيبا في تاريخ أمة متحضرة، فهو عجيب على الخصوص في تاريخ العرب، ولا سيما إذا اعتبارنا مبدأ تلك النهضة، وأنها لا تتجاوز مائة سنة قبل الهجرة إلى مائة وخمسين على الأكثر، فلا بد من التسليم بأنها حادثة كونية من خوارق النظام الطبيعي، ظهرت نتيجتها بعد ذلك في نزول القرآن الكريم بلغة قريش، و هو أفصح الأساليب العربية بلا مِراء، والله يحكم ما يشاء و يقدر.

[١١] مصطفى صادق الرافعي، *تاريخ آداب العرب*،... ص. ٧٤

[١٢] مصطفى صادق الرافعي، *تاريخ آداب العرب*،... ص. ٧٥

تطور اللغة العربية

ومن المعروف أن اللغة كائنة حياة لذلك تتطور اللغةكما يتطور الكائن الحي، وكانت اللغة العربية من حيث آثارها تنقسم إلى قسمين:[١٣]

١. اللغة العربية البائدة

فتطلق على لهجات كان يتكلم بها عشائر عربية تسكن شمال الحجاز على مقربة من حدود الآراميين وفي داخل هذا الحدود وخاصة في واحات تيماء والحجر (مدائن الصالح)، ولتطرف هذه اللهجة في الشمال وشدة الاحتكاكها باللغات الآرامية، وقد بادت هذه اللهجات قبل الإسلام ولم يصل إلينا منها.

٢. اللغة العربية الباقية

إن هذه اللغة التي تنصرف إليها كلمة العربية عند إطلاقها، والتي لا تزال تستخدم عندنا وعند الأمم العربية الأخرى، وقد نشأت هذه اللغة ببلاد نجد وحجاز، ثم انتشرت في كثير من المناطق التي كانت تشغلها من قبل أخواتها السامية والحامية، وقد وصلت إلينا العربية الباقية عن طريق آثار العصر الجاهلى والقرآن والحديث وآثار العصور الإسلامية المختلفة.

وكانت القبائل العربية في العصر الجاهلي لم تكن لغتها العربية وقفا على الفصحى وحدها، بل كان فيها كثير من الدخيل الذي قذفته الأمم وأفراد الشعوب المختلطون بالعرب. واشتراك العربية مع شقيقها في النسب ثم مجارة القبائل العربية لغير العرب جعلا الباب مفتوحا للدخيل، فبهراء كانت تكسير المضارعة كالعامية المعصرة.[١٤]

والعوامل المؤثرة في تطور اللغة العربية مجيئة الإسلام بنزول القرآن الكريم، لأن كانت اللغة العربية قبل نزول القرآن تصنف إلى شعر ونثر، فلما نزل القرآن صارت نماذج التعبير اللغوي في العربية الثلاثة : قرآنا وشعرا ونثرا.[١٥]

ولاشك أن اللغة العربية بلغت أوج مجدها وارتفعت في عهد الإسلام لأنها أصبحت جزء من الدين، وفي عهد النبوة وصدر الإسلام أخذ الناس يهتمون بالعربية كثيرا ويحرصون عليها لأنها لغة القرآن والدين والرسول الصادق الأمين.

كما استحدث القرآن الكريم أسماء جديدة، من ذلك ما يعرف بالألفاظ الإسلامية التي جائت تعبيرا عن المعاني الإيمانية الجديدة التي لم يكن للعرب معرفة بها، من ذلك:[١٦]

١ الإيمان: كان بمعنى التصديق مطلقا، ثم صار المعنى الشرعي الذي حدده رسول الله في الحديث " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره شره".

---

[١٣] على عبد الواحد وفي، *فقه اللغة*، الطبعة الثالثة (القاهرة: الفجالة،٢٠٠٤م). ص. ٧٩

[١٤] إسماعيل بن حماد الجوهري، *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية*،...ص. ٢٣

[١٥] محمد محمد داود، *العربية وعلم اللغة الحديث*، (القاهرة: دار غريب، ٢٠٠١م)، ص. ٣٦

[١٦] محمد محمد داود، *العربية وعلم اللغة*، ...ص. ٣٦

٢ الكفر: كان بمعنى الستر مطلقا، ثم صار المعنى الشرعي المعروف، ومنه تعريف حجة الإسلام الغزالي بأنه تكذيب الرسول في شيئ مما جاء به.

٣ الصلاة: كانت بمعنى الدعاء مطلقا، ثم صار المعنى الشرعي المعروف، وهو من أفعال محددة وأقوال مخصوصة حددها الشارع.

٤ الزكاة: كان بمعنى النماء مطلقا، ثم صار المعنى الشرعي المعروف، وهو القدر الواجب إخراجه لمستحقيه في المال الذي بلغ نصابا معينا بشروط مخصوصة. ونحو ذلك من الأمثلة المتعددة.

وبنزول القرآن الكريم ودخل الناس أفواجا من شتى بقاع الأرض، اتجه المسلمون من غير العرب إلى تعلم العربية رغبة في أداء العبادات والشعائر الدينية بها، وقراة القرآن بالعربية، لذا فقد انتشرت اللغة العربية انتشارا ما كان ليتحقق لها بدون القرآن الكريم.

و العوامل الأخرى في تطور اللغة العربية ارتباط اللغة بالمجتمع يجعلها تتأثر بما يمر به المجتمع من أحداث وظروف كما يلي:[١٧]

١ - العوامل السياسية

اختيار اللغة الرسمية في البلاد من أقوى العوامل المؤثرة على اللغة، فالنظام اللغوي الذي تفرضه حكومة أي دولة على الشعب كلغة رسمية للتعامل بها في مجالة الثقافة والعلوم والآدب، يجعل هذ النظام اللغوي هو النظام الفصيح، واللغة العربية لها خصوصية في هذا المقام.

٢ - العوامل الاجتماعية

العوامل الاجتماعية لها دور بارز في تطور اللغة العربية، فالناس داخل المجتمع الواحد متفاوتون في أمور كثيرة، فقد توجد الطبقات الصناعية الحرفية، والطبقات التجارية، والطبقات العلمية، ويتنوع الأداء اللغوي ويتميز بخصائص لغوية تتباين من طبقة إلى أخرى.

٣ - العوامل الحضارية

والعوامل الحضارية لها دور مؤثر في توطور اللغة العربية كذلك، إن العلم والثقافة لهما أهمية الكبرى في تكوين الشخصية وتشكيلها عقليا ونفسيا، ويكون لهذا التشكيل أثره على لغة الإنسان.

ولقد كان القرآن والعوامل المذكورة السابقة بحق السبب المباشر والرئيس وراء نشأة اللغة العربية وتطورها إلى عهدنا الحاظر.

خاتمة

اللغة العربية هي لغة القبائل التى سكنت شبه الجزيرة من اليمن إلى الشام إلى العرق وتخوم فلسطين وسناء للوصول إلى أغراضهم، وهي إحدى اللغات السامية. وإن موضوع نشأة اللغة من المواضيع التي تناولها الباحثون قديما وحديثا، وأسهبوا فيها كثيرا وأسفر عملهم ذاك عن بعضه آراء، من أهمها: التواضع والاصطلاح

[١٧] محمد محمد داود، *العربية وعلم اللغة*، ...ص. ٧٢

واللغة وحي من الله، وقد تم تعليم الإنسان الأول أسماء كل شيء (توقيف)، وولدت اللغة بصورة تراكمية خاضعة لعامل الزمكان وحاجة الإنسان.

إن أول تهذيب حقيقي في العربية، يرجع إلى عهد إسماعيل، أما تنقيح اللغة قبل ذلك فإنما هو درجات من النشوء الزمني لا يمكن بوجه من الوجوه أن يحدد أو ينسب إلى فرد معين، كنسبتهم بعضه ليعرب بن قحطان مثلا، إلا إذا صح تسلسل التاريخي حتى ينتهي إليه، وذلك غير صحيح. والاستدلال على نسبة المنطق العربي إلى يعرب إنما هو استدلال لغوي فقط، تنبّه إليه المجانسة اللفظية، وإلا فإن من المؤرخين من يقول إن يعرب هذا هو المعروف في التوراة باسم (يارح بن يقطان) وإذا وجدنا دلالة الإعراب – أي الإبانة – في يعرب، فلا نجدها في يارح، لا بالنص ولا بالتأوّل.

وتتطور اللغة العربية بعد مجيئة الإسلام بنزول القرآن الكريم تطورا عاليا، لأن كانت اللغة العربية قبل نزول القرآن تصنف إلى شعر ونثر، فلما نزل القرآن صارت نماذج التعبير اللغوي في العربية الثلاثة : قرآنا وشعرا ونثرا.

ولاشك أن اللغة العربية بلغت أوج مجدها وارتفعت في عهد الإسلام لأنها أصبحت جزء من الدين، وفي عهد النبوة وصدر الإسلام أخذ الناس يهتمون بالعربية كثيرا ويحرصون عليها لأنها لغة القرآن والدين والرسول الصادق الأمين. ومن العوامل الموثرة الأخرى في تطور اللغة العربية هي العوامل السياسية والإجتماعية والحضارية.

المراجع

إبرهيم أنيس وأصدقاء، *المعجم الوسيط*، الطبعة الرابعة، مصر: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤م

أبوا السعود أحمد الفخراني، *البحث اللغوي عند إخوان الصفاء*،الطبعة الأولى، مصر: مطبعة الأمانة، ١٩٩١م

إسماعيل بن حماد الجوهري، *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية*، المجلد السابع، الطبعة الرابعة، لبانون: بيورت، ١٩٩٠م

سامر إسلامبولي، *علمية اللسان العربي وعالميته*، مصر: القاهرة، ٢٠٠٧م

على عبد الواحد وفي، *فقه اللغة*، الطبعة الثالثة، القاهرة: الفجالة،٢٠٠٤م

محمد محمد داود، *العربية وعلم اللغة الحديث*، القاهرة: دار غريب، ٢٠٠١م

مصطفى صادق الرافعي، *تاريخ آداب العرب*، الجزء الأول، لبانون: دار الكتاب العلمية، ٢٠٠٤م